لعبة المسوخ في قصص السعيد بوطاجين

((حذائي وجواربي وأنتم)) *– أنموذجا –

Nadia Bouchefra *الدكتورة نادية بوشفرة*[1]

ملخص:

إنّ "لعبة المسوخ" في قصص السعيد بوطاجين، تتجاوز تخوم العنوان في مجموعته، بل وتتجاوز أيضا عناوين القصص، لتتجلّى أكثر في فحواها ومحتواها، ذلك لأنّها لعبة يتداخل ويتطابق فيها التجريد مع التجسيد ويتقاطع المعقول مع اللامعقول في عبثية معلنة، دعائمها الأساسية تركن إلى عالم من المتناقضات في كلّ نصّ قصصيّ.

الكلمات المفتاحية:القصة القصيرة-السرديات-التحليل-التناقض-الأدب-النقد-المسخ (جمع مسوخ).

THE METAMORPHOSİS GAME İN SAİD BOUTADJİNE'S STORİES

ABSTRACT

The metamorphosis game in Said Boutadjine's stories goes beyond the boundary of the collection title , in fact its even goes beyond the stories title itself ,to appear or to be reflected more in its content and sense ,because its a game where abstraction much embodiment ,and intersects reasonable with absurd in an obvious or a declared manner .Its basic pillars rely on a world of contradiction in every story text .

Key words: short story-narratology-analysis-contraduction- litterature-critic-metamorphose

إنّ الأثر هو الكتابة الّتي تسمو بمؤلّفها إلى سماء الخلود والبقاء.والكتابة المقصودة هي ذلك الإبداع الأدبي الذي يتعدّى حدود الكتابة العادية، إنّه الإبداع الأدبي الذي ينصـــهر فيه الفكر بالجديد من خلال طرحه للموضـــوع وتقديمه له برؤى متعدّدة ومختلفة، لذلك وجدت الأجناس الأدبية، والسردية بخاصة، مختلفة في مضامينها اختلافا يميز فيه، بين جودة العمل ورداءته.

من بين تلك الأجناس، سنتناول موضـوع القصـة القصـيرة عند مؤلّفها "السـعيد بوطاجين" خاصـــة في عمله "حذائي وجواربي وأنتم"، حيث يتّخذ المؤلّف من العنوان ســيميائية مشـــحونة بالدلالات ومشـــبعة بالمعاني، وكأنّه يتلاعب بهذه الثلاثية في اللفظ، لدرجة المســـخ .. وكأنّه يقول حذائي لكم أنتم وأنتم الذين عبثتم بجواربي والجورب هو – أنا – كما في قصـــة "الجورب المبلل" الذي كان في الأصل نهرا، لقوله: "عندما كثرت الأنابيب، كان النهر يشعر بتآكل النسغ لم يعد قادرا على النهوض غسـقا والذهاب إلى الحدائق رفقة عافيته" (ص٥٤)، ثم يصـرّح بذلك فيقول: "لسـت سـيّد أحد. أنا مجرّد جورب مبلّل، كان نهرا طيّبا. أمّا تلك البرك الصّـغيرة، فهي علامات الخسـوف وها أنتم شهود إنّي حزين عليكم. إنّي خائف عليكم منكم (ص٥٥).

[1] أستاذة محاضرة "أ" ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والفنون، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.

إنّ "لعبة المسخ" في قصص السعيد بوطاجين، تتجاوز تخوم العنوان في مجموعته، بل وتتجاوز أيضا عناوين القصص، لتتجلّى أكثر في فحواها ومحتواها، ذلك لأنّها لعبة يتداخل ويتطابق فيها التجريد مع التجسيد ويتقاطع المعقول مع اللامعقول في عبثية معلنة، دعائمها الأساسية تركن إلى عالم من المتناقضات كلّ نصّ قصصيّ.

ففي قصّة "أوجاع الفكرة" الّتي استهلّ بها مجموعته القصصيّة، تمكن من إخراج "الفكرة" المجردة إلى فكرة مجسّدة في شخص "أحمد علي" الذي خلقه وسوّاه وهو على وشك الموت، لقوله: "بجرّة قلم، خلقت أحمد علي ونفخت فيه من رثاث وقت ضيّع خطاه كنت أشعر باقتراب نهايتي، مسألة أيام أو تعاسات ويركن القلب إلى الراحة، لن يستطيع مقاومة هرج البلدة وخبثها خبث لا حدّ له" (ص ١٢).

وتتعلق الفكرة بالحياة، لكنها تصدم كما صُدِمَ خالِقُها قبلها، تصدم بعوج البلدة وباغتيال العقل واغتيال الضمير واغتيال الكيان البشري، في كلمة هو اغتيال للإنسان بسبب التعنّت والزيف والبهتان... وبمرأى الناس الأشرار الذين لا همّ لهم سوى السباق نحو الآفة، نحو الرذيلة ونحو الهتك والفتك والفسق لأجل بلوغ سلالم الفرعنة.

الفكرة هي أحمد علي وأحمد علي هو السارد الذي أنهكه الصخب والحمق والنذالة، فصار حكيما، مستبصرا بالجواهر والنوايا لقوله: "من لا يبصر حركة الساكن كفيف، من ينظر إلى الحال في حالتها لا يرى، الحكيم لا يتنبأ ولا يتكهّن، يعيش المستقبل في الحاضر، هكذا هو، سراج نفسه الشفافة التي فلتت من سياج المرحلة" (ص ٢٠).

أما في قصة "أحذية الورد والكرز"، فعلى الرغم من ضياع المعنى في العنوان وغرابة تصور علاقة الأحذية بالورد والكرز، حتى وإن كانت هذه العلاقة تحمل بعدا ميتافيزيقيا فلسفيا أو طرحا بلاغيا متميزا، إلا أنّ القصة فجّرت ثنائية "الماضي والحاضر"، الماضي ويقصد به الطفولة الجليلة بأيام الورد والحب والعنفوان وهو زمن من الألق والتوهج، زمن تجسّد في حضور الوالدة "القوي" واستذكاره لمرحلة من مراحل حياته الأولى المليئة بالصدق والحنان، حيث يقول: "والدتي ليست كبقية النساء اللائي عرفتهن في طفولتي، كانت تحتفل بميلاد النحل وأزهار الخير، بالنسبة والحشرة وأشعة الجوع" (ص ٢٥) أو حتى في قوله: "ابتسمت الوالدة إعجابا بابنها الذي حفظ الدرس كما يليق؟، ها قد ابتسم الألم أخيرا، عبّدوا الطرق كلها وألبسوا البسمة ثياب أميرة تحكمنا باسم الشفاه السعيدة" (ص ٣٠).

يتراوح السرد ما بين الماضي المشرق الذي بزغت فيه كرامة الروح الكبيرة وبين الحاضر الآيل إلى الغروب، بزوال القيم والمبادئ والأسس السليمة...فكما تمثل الماضي واختصره في وجه والدته "السمح"، يتمثل الحاضر في شخصية "مريم" تلك التي حاولت إنقاذه من براثن البؤس والاغتراب، لكنّها أساءت إليه لما ظنّت أنّه مثل الآخرين...وهنا تنكسر مرايا الماضي وتتشظى بفعل هذا الحاضر، فيذبل الورد في عينه ويموت الكرز تحت وقع الأحذية الخشنة والغليظة، تلك التي تدوس الأرض اليباب وتحرم السارد من تقبيل الحلم باسترجاع الماضي والاستئناس بحلاوة العيش فيه.

هي إذن أحذية لا تعترف بالحق والحقيقة، بالعفو والفضيلة، بالصفاء وحسن السيرة، إذ

يقول: "تعلّمت الظلام والجوع والهدوء والنّور ثم فقدان الثقة، علّمني فقدان الثقة كيف أعذر الذئب، رأيت الخطأ نواة والصواب عابر سبيله رسمته بخلايا العين التي رأت الخير في جناح ذبابة" (ص ٣٨).

وتحترق النّفس بوخزات هذا الحاضر المؤلمة، فيعترف قائلا: "أما أنا أيها الراوي، فلم تعد ترنيمة ماهرة لست سوى إناء محطّم، لا أحد يهتم بشأنه، حطام لا يريد أن ينكسر إلى ألف قطعة. يريد أن يلتئم ويغلب الوقت، لقد تعلّم بأنّ الحياة تنبثق من الأشياء المتينة أيضا، من هذا الحطام القديم الذي غرست له والدته مستقبلا" (ص٣٩).

إن حلاوة الماضي تظلّ بعيدة المنال أمام مرارة الحاضر وتبقى كفة ميزان هذا الحاضر تثقل كاهل المؤلّف فتزيده عناءً وقهراً لذلك يعود بذاكرته إلى الوراء، ليرفع من كفّة الماضي، عساه يجد ملاذا للراحة والهناء، يقول: "سأرجع لقد رتبت ضبابي جيّدا، جربت الورد الآخر، جربت فاكهة القلم وقصائد الغبار ثم امتلأت برذاذ الفرح الآتي من صباحات تكسانة، تلك الجنّة الصغيرة التي تنعم في الحكمة، سأعود إليها مكتسا أرق مدن الدّياثة.جربت ملح الآخرين وغاز العاطفة، يلزمني العودة لألتقي بطفولتي العليلة لأسقي الأفعال اليابسة والأدعية والنجوم للأجيال الآتية، أما أنا! ها! أوشكت أن أكتمل. يجب أن أخرج من الدنيا" (ص ٤٣).

أما عن قصة "مغارة الحمقى" فقد ميّزتها ثنائية "العلم/ الجهل" وبتعبير أدّق المعرفة والحمق"، ذلك لأن الكاتب صوّر ركنا من قاعة الأساتذة بالجامعة وركّب فيه كرسيين وطاولة، ليستقيم على شكل مغارة، سمّاها "مغارة الحمقى"، قاصدا من وراء ذلك أنّ العلماء هم الحمقى والحمقى هم الذين يدّعون العلم والمعرفة، وتتطوّر الأحداث، حينما يدخلها القاصي والدّاني، وتعلو الأصوات والأعناق، إلى أن يصل الخبر إلى رئيس الجامعة...

لقد أثار السارد قضية الاستعلاء والتفاخر باللاشيء عِوَض التواضع وحبّ الاطلاع عند الجيل الجديد، يقول: "... لقد فضنا بما فيه الكفاية كبر الأطفال كلّهم، كبرتم، فسدت الحروف وغدت خشبا، كنا أئمة فيما مضى ثم انتهينا، عندما حفظ المريدون حرف الألف، أحرقوا المصحف والخالق وقالوا ها نحن ها هنا. لم نجد حلا آخر يتقن العامية والفصحى.ذهب البلد إلى النوم باكرا وبقينا نحرس عدما..." (ص ٦٤).

هم مريدون أو علماء جدد، مهمتهم طمس عوالم الماضي، بفسخ ونسف ما قدّمه العلماء من جهود واجتهادات أمثال: ابن خلدون، الجاحظ، سقراط.... بل وتضليل الناشئة عن وجود هؤلاء الأعلام وتغييب عقولهم عنهم... بيد أنّ القول لا يصدق عليهم جميعا. "فالشيخ العليل الذي ألّف كتبا كثيرة وذاع صيته في كل مكان" (ص ٧١) أعجبته الفكرة وعدّ نفسه أحد الحمقى من الأتباع الصالحين وليّ أحمق أحب المغارة لدرجة القداسة... وآخر ويدعى عبد الرحمن عيسى، الذي سمّى نفسه عبد اليهود نسبة إلى القوم الذي هو بينهم، فهم في نظره يهود لأنهم يثيرون بداخله التقزز والاستنفار ورجل آخر وهو الشاعر المعروف بهدوئه، كان "قبّة هائمة توزّع الحب والصلوات، إلها صغيرا يجيء كل يوم حاملا في جيوب قصائده أسئلة عن الوجود، عن الأشياء الصغيرة التي تمنح الوجود طعما، وكان خجولا" (ص، ص: ٧٣، ٧٤).

تجسّد تلك الشخصيات الاستثنائية والمساندة لشعار الحمقى شخصية الكاتب نفسه أو كما

يقول عبد الوالو، بمعنى ذلك الذي لا يصلح في زمن الغبن والشقاء، فعبد الوالو وعبد اليهود والشيخ العليل والشاعر الخجول، هي شخصيات مسقطة عن شخصية الكاتب الذي عبث بالحكمة وادعى الحمق و الجبن، ليترك المعرفة لأولئك المكرة، إنّه إسقاط مبتكر لأجل تمويه القارئ ولأجل استكناه النص واستنطاقه ليصل إلى عملية استبصار المخزون من خلال الإشارات الدّالة وغير الدّالة، الظاهرة والمستترة.

هو الواحد المتعدد أو المتعدد الواحد، ما يدعوه طه عبد الرحمن ب"التكوثر العقلي و تعدد الأصوات" و يعني به:"أنّ القول المنطوق لا تقوم به ذات واحدة و إنّما تشارك في القيام به ذوات كثيرة كما لو كانت أصواتا مختلفة، تأتلف فيما بينها للنطق به في مرة واحدة..و هذا يعني أنّ المتكلم عبارة عن ذوات كثيرة، كلّ واحدة منها تقوم بوظيفة خطابية مخصوصية.."(١).

يقصد بالتكوثر العقلي التجدد على الدوام و التقولب بغير انقطاع –إنّه المسخ في صفته الإيجابية-سمته الفاعلية القصدية بمعنى أنّه فعل موجه للآخر، يراد به طلب المنفعة في حركية دائمة، تفيد التكاثر العقلي..

تحيل "لعبة المسوخ" في بعض قصص "حذائي و جواربي و أنتم" إلى هذا التركيز على التكوثر العقلي لتبليغ رسالة هادفة و سامية، يودّ من خلالها المؤلف التعميم، و يرجو التكاثر في الإدراك و الاستيعاب المعرفيين، لتتحقق الفائدة و المصلحة لدى المتلقين..فإذا كان التكوثر العقلي تكاثرا فليس كلّ تكاثر عقلي تكوثرا (٢).

الهوامش:

*السعيد بوطاجين، حذائي و جواربي و أنتم، دار الريحانة للكتاب، ط١، الجزائر ٢٠٠٧.

(١) طه عبد الرحمن، اللسان أو الميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٨، ص.ص:٣٠,٢١